خالد وعمرو

كان خالد وعمرو من أفذاذ الرجال فى قريش ومن أشدهم عداوة لرسول الله

لعل رسول الله ﷺ لم يفرح برجلين أسلما بعد الهجرة، كما فرح بخالد بن الوليد وعمرو بن العاص؛ فقد أسلم الرجلان بعد عمرة القضاء، فى صفر سنة ثمان، فكان فرح رسول الله بإسلامهما، يكاد يعدل فرحه بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب قبل الهجرة.

كان للرجلين فى قريش شأن أى شأن، وكانا من الدعائم القوية فى بنيانها؛ فأما عمرو فكان من أفذاذ العرب فى الدهاء والسياسة، وحسن التأتى للأمور؛ وأما خالد فكان من أفذاذ العرب فى أساليب القتال وفنون الحرب، وكانت إليه أعِنّة الخيل فى الجاهلية. فلما أسلما فَتّ إسلامهما فى عَضُد قريش، وأحدث فى بنيانها ثغرة هائلة، فأخذ يترجح للسقوط حتى سقط بعد سنة

أشهر. وبمقدار ما ترك إسلامهما فى عزائم قريش من الوهَن، شد من عزائم المسلمين وقوى من دعائمهم.

كان كلا الرجلين يفكر فى هجر مكة

كان كلا الرجلين يحمل من الضغينة لرسول الله ﷺ ومن التأبّى عليه وعلى دينه، ما يحمله أشد أشراف قريش عداوة له واستكبارًا عليه؛ حتى إن خالدًا لم يُطق البقاء فى مكة ورسول الله يعتمر عمرة القضاء، فخرج منها ممعنًا فى البعد، حتى لا يرى ولا يسمع من أخباره شيئًا؛ وحتى أخذ منذ صلح الحديبية يفكر فى الأرض التى يأوى إليها، حين يتم الأمر لمحمد بدخول مكة، وكان على يقين أنه لابد أن يتم الأمر له.. يقول خالد: «.. فلما صالح قريشًا بالحديبية ودافعته قريش بالراح، قلت فى نفسى: أى شىء بقى؟ أين المذهب؟ أإلى النجاشى؟ فقد اتبع محمدًا وأصحابه آمنون عنده!! أفأخرج إلى هرقل، فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية؟ أفأقيم فى عجم؟ أفأقيم فى دارى بمن بقى؟».. إنها الحيرة البالغة تملك على الرجل مذاهبه فلا يدرى أين يذهب.

كذلك كان عمرو يفكر فى الهجرة من الجزيرة كلها، كراهة لرسول الله ﷺ وتأبّيًا عليه، وفرارًا بنفسه وكرامته ودينه أن يقع تحت سلطان محمد. يقول عمرو: «.. فلما حضرت الحديبيةُ

وانصرف رسول الله فى الصلح، جعلت أقول: يدخل محمد قابلا[1] مكة بأصحابه! ما مكة بمنزل ولا الطائف، ولا شئ خير من الخروج!.. وأنا بعدُ ناء عن الإسلام، وأرَى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم. فجمعت رجالا من قومى كانوا يرون رأيى، ويسمعون منى، ويقدموننى فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومِدْرَهُنا[2]، فى يُمن نفس وبركة أمر! قلت: تعلمون أنى - والله - لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا منكرًا؛ فقد رأيت أن نلحق بالنجاشى؛ فإن ظهر محمد كنا عند النجاشى.. نكون تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد! وإن ظهر قومنا فنحن مَن قد عرفوا، فلا يأتينا منهم إلا الخير. قالوا: هذا الرأى»..

هكذا كان الرجلان يفكران فى الهجرة من أرض العرب، حين استبان لهما أن نجم محمد دائب فى الصعود، وأن نجم قريش ممعن فى الهبوط، وأن دين محمد ظاهر لا محالة على دين قريش. ولكن الله الذى بيده مفاتيح القلوب، هيأ لكليهما من الأسباب ما فتح به قلبه، وأسرع به إلى الإسلام من حيث لا يحتسب[3].

---

(١) قابلا: فى العام القابل.

(٢) المدره: المتكلم والمحامى عن القوم.

(٣) من حيث لا يحتسب: من حيث لا يدرى ولا يقدر.

عمرو يتحول من نية الغدر إلى عزيمة الإسلام

فأما عمرو فقد هاجر إلى النجاشى فى رفقته الذين رافقوه، فصادف قدومُه قدومَ عمرو بن أمية على النجاشى، حاملا إليه كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فظن عمرو أنها فرصة يستطيع فيها أن يبطش برسول محمد، فيشفى بذلك غيظ قلبه، ويقدم إلى قريش يدًا لن تنساها له أبد الدهر..

يقول عمرو: «فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية! لو دخلت على النجاشى فأعطانيه فضربت عنقه، لرأت قريش أنى أجزأت عنها بقتل رسول محمد!» فدخلت فسجدت له كما كنت أصنع؛ فقال: «مرحبًا بصديق! أهديت لى من بلادك شيئًا»؟ قلت له: «نعم، أدَمًا كثيرًا». وقدمته إليه فأعجبه واشتهاه. فلما رأيت طيب نفسه قلت: «أيها الملك، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول عدو لنا قد وتَرنا، وقتل أشرافنا وخيارنا؛ فأعطنيه لأقتله». فغضب، ورفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره.. فابتدر منخَرَاىَ[1]؛ فجعلت أتلقى الدم بثيابى. فأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها، فَرَقًا منه. ثم قلت: «أيها الملك، والله

(١) فابتدر منخراى: سالا دما.

لو ظننت أنك تكره هذا ما سألته». قال: «أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر[1]، الذى كان يأتى موسى عليه السلام، لتقتله»؟

قال عمرو: فغيَّر الله قلبي عما كنت عليه، وقلت فى نفسى: عرف هذا الحقَّ والعربُ والعجم، وتخالف أنت؟ ثم قلت: «أتشهد أيها الملك بهذا»؟ قال: «نعم، أشهد به عند الله يا عمرو؛ فأطعنى واتبعه، فوالله إنه لعلى الحق، وليَظهَرن على من يخالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده»! قلت: «أتبايعنى له على الإسلام»؟ قال: «نعم»؛ فبسط يده فبايعنى على الإسلام، ثم دعا بطَسْت فغسل عنى الدم وكسانى ثيابًا، ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح، فصحبته حتى قدمنا المدينة»..

وخالد يعتزم الفرار من الإسلام فيتحول قلبه إلى الإسلام

وأما خالد فقد ظل فى حيرته يفكر فى الوجه الذى يتجه إليه، حتى دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، فتغيب

(١) الناموس الأكبر: هو الملك الذى ينزل بالوحى على الرسل.

عنها فلم يشهد دخوله.. يقول خالد: «وكان أخى الوليد دخل معه، فطلبنى فلم يجدنى فكتب إلى كتابًا فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلُك عقلك[1]، ومِثْلُ الإسلام لا يجهله أحد. وقد سألنى رسول الله عنك، فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به. فقال: ما مثله يجهل الإسلام. ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له، ولقدمناه على غيره! فاستدركْ يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة». فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرتنى مقالة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ ورأيت فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة..»

مصادفة سعيدة

«فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان ابن أمية، فقلت يا أبا وهب، أما ترى أن محمدًا ظهر على العرب والعجم؟ فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه شرف لنا! فأبى علىّ أشد الإباء، وقال: لو لم يبق غيرى ما أتبعه أبدًا؛ فقلت: هذا رجل موتور؛ قتل أبوه وأخوه ببدر. ولقيت عكرمة

(١) وأنت ذو العقل الراجح.

ابن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان؛ قلت: فاطْوِ ما ذكرت لك. قال: لا أذكره. ثم لقيت عثمان بن طلحة الحَجْبي[1] قلت: هذا لي صديق، فأردت أن أذكره، ثم ذكرت قتل أبيه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة، فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد، فكرهت أن أذكر له. ثم ذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت له: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صب عليه ذَنُوب[2] من ماء لخرج. ثم قلت له ما قلت لصفوان وعكرمة، فأسرع الإجابة.. وأدْلجنا بسَحْرَة[3]، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجَج، فغدونا حتى انتهينا إلى «الهدَّة»، فوجدنا عمرو بن العاص بها، فقال: مرحبًا بالقوم! قلنا: وبك! فقال: أين مسيركم؟ قلنا: الدخول في الإسلام. قال وذلك الذى أقدمنى.. فاصطحبنا جميعًا حتى قدمنا المدينة».

الرسول يسر كثيرًا بإسلام البطلين ويعرف لهما مكانهما

فلما وصلوا المدينة أناخوا ركائبهم بظهر الحرّة، فأُخبر بهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسر بهم وقال لأصحابه:

---

(١) نسبة إلى الحجابة وهى القيام على مفاتيح الكعبة، وهى إحدى وظائف الشرف فى خدمة البيت.

(٢) الذنوب: الدلو.

(٣) أدلجنا: خرجنا فى ظلمة السحر، وهو آخر الليل.

«رَمَتْكم مكةُ بأفلاذ كبدها»[1]! قال خالد: «فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم عمدنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلقيت أخى الوليد. فقال: أسرع، فإن رسول الله قد سر بقدومكم، وهو ينتظركم. فأسرعنا المشى فاطَّلَعت عليه. فما زال صلى الله عليه وسلم، يبتسم حتى وقفنا عليه؛ فسلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق. فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله! قال: «الحمد الله الذى هداك! قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير». قلت: يارسول الله، ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك! فقال صلى الله عليه وسلم: «الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله». وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

يقول عمرو بن العاص: «فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه فى أمر حَزَبه[2] منذ أسلمنا. ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب».

لقد اكتسب الإسلام بإسلام خالد وعمرو قائدين عظيمين،

---

(١) أى بخير أبنائها.

(٢) حزبه: أهمه.

وبطلين كريمين، قاما بدور مهم فى تاريخ الفتح الإسلامى، ولم يزل رسول الله ﷺ يولى خالدًا أعنَّة الخيل كما كان يتولاها فى الجاهلية، وقد سماه، صلى الله عليه وسلم: «سيف الإسلام»، فكان سيفًا سَلَّه الله على الكفار ماضيًا أبدًا، وعَزماته يوم مُؤْتَة، وفى قتال أهل الردة، وفى فتوح العراق والشام، أكثر من أن تحصى، وكان له فى جميعها البلاء الحسن والذكر الجميل.